لحظة الصفر

قصة عن بوريس جورباتوف

Boris Gorbatov

« لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رجفة عندي للصدر . هنا الحقد في صدري ، الحقد الصبيّ الذي لا ينفد . ان قلبي ينتقل . هذه معركتنا الى الموت . هناك أدهب »

أيها الرفيق ! لقد قرىء علينا الأمر الآن . في الفجر سنكون في المواقعة . سبع ساعات حتى الفجر .

كان الوقت ليلاً . وبعيداً فوق الرؤوس تلألأت الكواكب . خيم السكون . كان قصف المدافع قد سكن . وأغفى جاري بغفاءة هنيئة . وفي ركن من الأركان ، انبعث همس ما . صاحك المراقب يسير الى أحدهم كلمات .

في الحياة قد مرت عليّ لحظات لها طابع عجيب ، ومن الجدير أن تُتذكّرى .

وها أنا ما سأذكر هذه الليلة — ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٤١ سأذكر القمر وهو يتسلق على منحدرات « الدون » وقد بدت النجوم مرتعشة كأنما أصابتها البرد اه . سأذكر كيف أغفى زملائي ورقد في نوم عميق ، وعلى الربى وفوق الخنادق ومواقع قذف النار ، خيم سكوت رهيب . سكوت في أضاعيفه العاصفة . السكوت الذي يسبق المواقعة .

كنت مستلقياً في الخندق ، وقد أخفيت مشعلي الصغير بطرف ردائي المبلل لأكتب اليك هذا ..... كذلك كان الملايين من المحاربين مثلي منتشرين من محيط الجد الشمالي إلى البحر الأسود ، يستلقون كما أنا مستلقٍ ، وفي نفس هذه الليلة ، وعلى الأرض المرطوبة ، ينتظرون تنفس الصبح والهجوم ، يفكرون في الحياة وفي الموت ، وفي ما ينتظرهم من حظ .

أيها الرفيق ! ان كلاً منا يريد ان يعيش طويلاً . وأنا أريد أن أعيش ، وأتنفس وأكون قديراً على الغناء ، وأرى السماء من

فوق رأسي . غير أني لا أريد أن أعيش أي لون من ألوان العيش ، فلست ممن يهمهم أن يعيشوا وكفى — وأن يوجدوا وحسب .

في الليل الماضي زحف رجل الى خندقنا آتياً من « الضفة الأخرى » . لقد هرب من الفاشيين . قدم زاحفاً بساقين واهنين وذراعين انتزع عنهما الجلد وسالت الدماء . فلما رآنا ، نحن أهله وعشيرته ، طفق يبكي ، ومضى يشد على أيدينا ويهزها ، وكأنه أراد أن يعانق كل من لاقاه . كان وجهه يختلج ، وشفتاه تهتزان ، فأعطيناه بعض الخبز والزبد والطيماق . فلما فرغ من وجبته هدأ روعه وأخذ يقص علينا ابشع القصص عن الالمان . حدثنا عن السلب والتعذيب والسرقة . فلما سمعناه أخذ دمنا يغلي ، وقلوبنا تزداد خفقاً .

رأيت ظهر الرجل . ثبتت عيناي فيه فلم تريا شيئاً آخر كأنما ما قد حلقنا به . لقد كان منظره أبلغ من كل كلام .

كان قد مضى شهر ونصف شهر على هذا الرجل تحت سلطان الفاشيين ، فتقوس ظهره كما لو كان فقاره قد كسر ، أو كأنه أجبر على أن يمشي منحنياً نحو الارض ، أما عضلات ظهره فكانت تتشنج وتتكمش ، كأنما هي تترقب توالي الضربات القاسية . كان منظره ينم عن أنه رجل سامت ارادته ، أو أنه وقيق مستعبد .

صاح به أحدهم اعتدل . قوّم كتفيك وردهما الى الوراء ، أيها الرفيق . انك في عشيرتك .

رأيت ، كما لو كنت أرى في صفحة جلية واضحة ، ما هو مقسوم لي . حياة بظهر مكسور ، ثم الاسترقاق والعبودية .

أيها الرفيق ! خمس ساعات قد بقين ثم يتنفس الصبح . بعد خمس ساعات أكون في غمار المعركة . كلاّ ليس من أجل تلك الربوة التي أمامي سوف أحارب الفاشيين . كلاّ . ستكون الحرب لاغراض أعظم وأضخم . ستكون الحرب من أجل من سوف يكون التصرف في مصيري : هتلر أم أنا ؟

حتى هذه البرهة يتصرف كلانا — أنت وأنا — في مصير نفسه ويتسوّد عليه . ونحن إننا نختار نوع العمل الذي نعمل ، والصنعة التي نتعلمها ، والوظيفة التي نشغلها ، ونتزوج من المرأة التي نحبها . أمة حرة في أرض حرة . إنما ننظر للمستقبل بشجاعة وبطولة . الملكة كلها أمّ لنا جميعاً . في كل بيت أصدقاء ورفقاء . وكل وظيفة من وظائف العمل محترمة مبجلة ، والعمل في ذاته بطولة ومجد . لقد علمت ان كل طن من الفحم نخرجه من باطن الارض ، فيه الشرف والصيت والكفاء . وكل أردب من القمح يحصد ، يضاعف من ثروتك ، التي هي ثروة أسرتك .

ولكن ! لقد أتى الفاشيون . سيصبحون

المقدّرين لحظك ونصيبك في الحياة. سيحطمون يومك ، ويسلبون غدك . سيتحكمون في حياتك وسكنك وأسرتك . سيطردونك من بيتك ، نعم وسوف تطرد مقصوم الظهر ، طاوياً تحت المطر ، ملقى بك في الأوحال . نعم . قد يسمحون لك بأن تعيش. ذلك بأنهم في حاجة إلى دواب الحمل. سوف يستعبدونك. ولكنك ستكون عبداً سيئ الثمن مقوّس الظهر . ستحصد أردب القمح . ولكنه سيذهب اليهم وتُلقى متعوراً من الجوع . وستخرج الطن من الفحم . غير انهم سيستولون عليه صارخين : « أيها الخنازير الروس : انكم لا تحسنون العمل ». ستظل في أعينهم دائماً ذلك الروسيّ الحقير : حيوان من نوع أخسّ سيحملونك على أن تنسى لغتك ولغة آبائك . اللغة التي حلمت بها ورأيت فيها رؤاك . اللغة التي عبرت بها عن حبك لمن أحببت . سيجبرونك على أن تتكلم لغتهم ، وسوف يهزأون بك وأنت تردد بلغة أجنبية بعيدة عنك .

الفاشيّ ! !

سيطأ بقدمه أحلامك ويُشتمل على آمالك انك قد أمّلت وحلمت بأن ابنك إذا كبر واستوحل فسيكون طالباً ، أو مهندساً ذا خطر وقيمة . ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعلماء من الروس ! ألم يجمعوا علماءهم أنفسهم في قطعان أودعوها محلات الاعتقال ؟ انهم لا يريدون إلاّ دواب غاملة من دواب الحمل . وسوف يساق ابنك تحت سلطان الفاشيين ، ناسياً طفولته وفتوته ومستقبله .

كثر ما دللت ابنتك الحبيبة وأحطتها بعنايتك . كم مرة حنوت عليها وأشفقت بها واحتميت فوقها أنت وزوجك وهي في غفوتها الملائكية ، وحلمتما بسعادتها . ولكن الفاشيين لا يرغبون في بنات روسيات نظيفات جميلات. يردنهنّ في بيوت الدعارة ليكنّ متعة لذوي القمصان السمر من أبنائهم . أترضى بأن تكون موضع نظرك وعمل أمك ... ابنتك « مارونكا » ، حمامتك المحبوبة ..... بغيًّا.

أنت تفخر بزوجك . كل من في القرية يحبها ويحترمها ... أوكسانا الجميلة . كلنا في حسدك عليها سواء . ولكن في العبودية لا يكون للنساء اختيار . انهنّ يكبرن قبل الأوان . ان زوجتك « أوكسانا » ستصبح عجوزاً شمطاء مقوّسة الظهر .

أنت تبجل والديك . ألم يكونا السبب في انك وجدت وربيت ونشأت ؟ وأوصتك هذه ! ألم تناولتك على أن تحيي لها حياة سعيدة هنية هادئة ، وشيخوخة شريفة محترمة . ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعجائز الروس . فالمعمّرون لا يعملون . إذاً ينبغي أن يموتوا جوعاً ، ولهذا فسوف لا يعطون والدتك شيئاً من القوت الذي تحصله بكد ساعدك .

قد يتفق أن تحتمل كل هذا ، فلا تموت. غير أنك ستصبح حاملاً متواكلاً أعيش عيشاً كله عماء وجوع وحزن .

اني لأرفض أن أعيش هـذا العيش . كلاً . لن أحيا هذه الحياة . لاجدر بي أن أموت من أن أوجد هذا الوجود . أفضل عندي حرية في صدري ، من قيد في عنقي . كلاً أخلق بي أن أموت شجاعاً ولا أعيش عبداً ذليلاً أو جباناً حقيراً !

أيها الرفيق ! ثلاث ساعات بقين قبل أن ينقضي الصبح . ان مصيري في يدي . مصيري كائن في سنان حربتي المرهف . مصيري ومصير أسرتي ووطني وقومي .

أيها الرفيق ! ساعتان قبل أن ينقضي الصبح .

تطلعت خلال الظلام بعيني رجل شعر باقتراب الوقعة وترقب الموت ، فنظر بعيداً واخترق الحجب . ومن خلال ليالٍ طوال وأيام أطول ، بل ومن خلال شهور أنظر أمامي ، ومن فوق جبال من الأحزان والآلام ، فأرى النصر ماثلاً . سوف ننالـه . سنخوض اليه أنهاراً من الدماء ممزوجة بالحزن والأسى والعذاب . سنخوض اليه مآسي الحرب ودواهيها . ولكننا سنصل إلى النصر ، الى النصر الحاسم الحاصل على العدو . لقد قاسينا من أجله واحتملنا كثيراً . سوف نفوز .

تذكر أيامنا قبل الحرب . لقد ظلّ جيلنا هذا وسيف الحرب مصلت من فوق رأسه . عشنا وعملنا ودللنا زوجاتنا وربينا أولادنا . ولكن لا يجب أن ننسى أن كل هـذا انما كان من أجل دقيقة واحدة . هنـالك في الناحيـة الأخرى من تخومنا يجثم وحش مفترس يستعد لمضغنا ، فيشحذ أظافره ويحدّ أنيابه الحامة . لقـد كانت الحرب جارنا القريب . كانت أنفاس الأفعى المجلجلة تسمم حياتنا وجهـادنا ، بل وحبنا نفسه . نحنـا فزعين . وانتظرنا :

هاجمنا الوحش . بات في أرضنا . تدور الآن أقسى المعارك وأنكى الوقائع . حرب إلى الموت . والتفاهم مستحيل فلا اختيار إذن . فلنطعن ونقوّض كل قائم لنقضي مرة واحدة وإلى الأبد ، على الوحش الهتلري . وحتى يثوى آخر فاشيّ في قبره العميق ، لن ينكشف عن صدرنا ذلك الكابوس الذي ينشانا . ثمّ هدوء شامل . هدوء لا يتخلله جلبة . هدوء النصر ، سيظال رؤوسنا . وهنـالك سوف نسمع ، أيها الرفيق ، لا حفيف أشجار الغابة الرحبة الجميلة وحده ، بل سوف نسمع العالم يرسل أنفاس الراحة ، ويتم هواء الأمل . سوف نسمع أنفاس الانسانيـة تتردد هادئة وسعيدة .

سوف تدخل المدن والقرى المحرّرة رعب ما المكون الشامل — سكون فلوب

شعلها الفرح والسرور . هنالك سيرتفع الدخان مرة أخرى من مداخن المعامل الشيدة — هنالك الحياة ، سوف تدب مرة أخرى . حياة سعيدة كاملة أيها الرفيق حياة عظيمة ثمينة في دنيا حرة . حياة تسودها أخوة الشعوب .

من أجل تلك الحياة يهون الموت . إنه لن يكون موتاً . إنما هو الخلود .

***

أخذ الصبح يتنفس أيها الرفيق . صبح خجول أسمر الإهاب . بدأت الأشباح تتبين لم تلح لنا الحياة من قبل في ثوب أبهج . انظر كيف تباسم عضاب الدون أمامنا . انظر كيف تلمع التلال الطباشيرية تحت أول شعاع يشق الأفق ، كأنها جبال من فضة .

نعم . أن للحياة قيمة ما . ولكن قيمتها في أن نرى النصر كيف ينال ، إذ ذاك أضم رأس ابنتي الصغيرة إلى صدري بين ثنايا معطفي الكبير ، راضياً وخير البال . إني إنما أعيش من أجل أغراض كثيرة . ولذا فأنا ذاهب الآن إلى المعركة . سأحارب لأجل الحياة . فاذهب من أجل حياة طيبة أيها الرفيق ، ولن أعيش لأكون عبداً . ذاهب من أجل سعادة أولادي . من أجل سعادتي وطني ، أمي الكبرى . من أجل سعادتي . إني أحب الحياة . وسوف لا أبددها . اني أحب الحياة . ولكنني لا أرهب الموت . اني أفهم من الحياة أن أعيش شجاعاً ، وأموت شجاعاً

الفجر ! !

بدأت المدافع السريعة تجلجل . وستار النار سوف ينتشر . وبعد برهة تذهب في الثغرات .

أيها الرفيق ! من فوق «عضاب الدون» التي هي هنابي ، أوسلت الشمس أشعتها الذهبية . شمس المعركة .

واني لأقسم أيها الرفيق بحق جلالها اني سوف لا أتراجع . فاذا أصابني مكروه فسوف أموت في الصفوف . واذا أحيط بي فسوف لا أسلم نفسي . لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رحمة عندي للعدو . هنا الحقد في صدري ، الحقد العميق ، الناري الأنفاس . ان قلبي ليشتعل . هذه معركتنا ال الموت .

هنالك . أذهب